عِلْمُ الكَلامِ المُعاصِرِ وإسهامُهُ في مُحارَبَةِ الإلْحادِ

الدكتور محمد العوداتي
أستاذ العلوم الشرعية بالتعليم العتيق
دكتوراه من كلية الآداب، مرتيل
المغرب

مقدمة:

الحمد لله خلق فسوّى وقدّر فهدى، سبحانه خَلَقَ الإنسان من نُطفة فإذا هو خصيم مبينٌ، والصلاة والسلام على الرحمة المهداة للعالمين، سيّد الأولين والآخرين، محمدٍ صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

إنَّ العالَمَ الإسلامي في العَصر الحالي يَتعرّضُ لحمَلاتٍ شَرسَةٍ مِن أَجل الطَّعن في ثوابته وعقيدتهِ حتّى يَغرقَ في وَحْلِ المشاكل الإيمانية التي تَهدم المتجمعاتِ الإسلاميةَ مِنَ الداخِلِ، وتؤثّر سلبا على التماسك والتآزر الذي ينبغي أن يكون عليه المسلمون في أصقاع الأرض كلها.

وما نراهُ في الآونة الأخيرة مِنِ انتشارٍ للشُّبهات الفكريةِ والشَّهوات الشيطانية بَيْنَ شبابِ المسلمين –خُصوصا شُبه الإلحاد والملحدين–، ليسَ وَلِيدَ اليومِ وليسَ مُستغربا مِن أعداء الإسلام، لأنَّ مِن سُنّة الله تعالى في الأرض ذلك الصّراعَ الأَبَدِيَ بينَ الحقّ والباطل، ولكنَّ الجديدَ في ذلكم الشَحْذِ وتلكم الهمَمِ العاليةِ هُو تَسخير كلّ شيء من أجل نشر الإلحاد، سواء بالمال أو بالإعلام أو بكل تِقنية يُمكنها أُن تُساهم في ذلك.

وإنَّ عِلْمَ الكلام المعاصرِ عليه المعوَّلُ في الدِّفاع عن عقائدِ المسلمين في مواجهة هذه الحمَلاَتِ المسعورَةِ التي تَدعُو إلى الإلحاد، فهو حَلٌّ لكَثيرٍ مِن المشكِلات التي يمرّ الناسُ منها في العالم الإسلامي.

وعلى هذا فإنّ الإلحادَ يُمثّل أكبر تَحدّي لِجَدْوى عِلم الكلام في الحالِ وفي الاستقبال.

ومن هنا، اخترتُ في دَحضِ الإلحادِ علمَ الكلامِ المعاصر، باعتباره سِلاحا ناجِعًا يُواكب التَغييرات والشُّبَهَ الكلاميةَ المعاصرةَ.

فما هي الحاجةُ إلى العلمِ الكلام المعاصر؟ وكَيفَ يُمكنُ لِعلْمِ الكَلام المعاصِرِ أَن يُسهِمَ في مُحارَبَةِ الإلحادِ؟

المحور الأول: الحاجة إلى علم الكلام المعاصر:

يُعتبر علم الكلام المعاصر من المشاريع التي تُسهم في وضع حدٍّ للركود الفكري الذي ساد الدراساتِ الكلاميةَ في القرون المتأخرة، وتساعد على بث روح جديدة في مواجهة الشبهات التي تروم هدم عقائد المسلمين.

وهذا لا يستدعي ولادة علم كلام جديد، بل إن مقاصد علم الكلام الحديث هي نفسها مقاصد علم الكلام القديم، إذ هما معا يدافعان عن شيء واحد وهو الإسلام، وهو لا يقبل التغيير والتجديد في مقاصده الأساسية، وإن الذي يدخله التغيير والتجديد هو المجالات والمستجدات الفكرية القائمة على مناهج جديدة.

وفي العقود الأخيرة كثر الحديث عن علم الكلام الحديث وتسارعت مطالب التجديد في علم الكلام القديم. وهو تجديد لا يأتي فقط على إضافة بعض المباحث التي تتماشى مع العصر إلى مباحث علم الكلام القديم، بل تجديد يمتد عند بعضهم إلى ترك أسس علم الكلام القديم ونقد أصوله والتشكيك في جدواه.

فنكون حينئذ بين مذهبين أو رأيين:

الأول يسعى إلى نقد علم الكلام القديم ويدعو إلى القطيعة معه. وهذا الرأي فيه مغالاة مع ما أنتجه الفكر الإسلامي من القواعد والمناهج للدفاع عن العقيدة الإسلامية.

الثاني يطالب أصحابه بالتجديد من داخل علم الكلام، بمعنى الإبقاء على الأصل الذي ينبني عليه علم الكلام القديم مع توسعة مباحثه ومسائله حتى يشمل جميعَ المستجدات الطارئة والمفاهيمِ المتناولة بالدراسة فيما له علاقة بالعقائد.

وهذا الرأي الثاني هو المقصود بالدراسة، وهو علم الكلام المعاصر أو الحديث الذي يكون التجديد فيه من الداخل.

تعريف علم الكلام الجديد:

أولا: تعريف علم الكلام بمعناه القديم:

قال ابن خلدون: هو "علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة، وسر هذه العقائد هو التوحيد"[1].

وقال عضد الدين الإيجي: "علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية وإبراز الحجج ودفع الشبه"[2].

وقال سعد الدين التفتازاني: "الكلام هو العلم بالعقائد الدينية عن الأدلة اليقينية"[3].

وإذا تأملنا في هذه التعاريف وجدنا أن مدارها حول أمور مهمة وهي:

- مع كون الوحي منقولا فإنه لابد من النظر والاستدلال العقلي على إثبات العقائد الدينية.
- علم الكلام يدور حول إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج والأدلة، وحول دفع شبهات الخصوم التي تروم إسقاط العقيدة.
- علم الكلام موضوعه هو العقائد الدينية وهي الأركان الإيمانية الغيبية الواردة في حديث جبريل: "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره"[4].

ثانيا: أما تعريف علم الكلام الجديد:

وقع اختلاف في معنى الجديد، فذهب بعضهم أن الجديد هو قطع الصلة بالقديم، وذلك بسبب ما طرأ على البيئة العلمية من تغيرات فكرية وثقافية تستقل عن ذاته ولا حاجة لها بعلم الكلام القديم، فتكون على هذا كلمة "الجديد" نعتا للعلم، أي علمُ الكلامِ الجديدُ، فعلى هذا يكون علما جديدا مستقلا.

والراجح ما ذهب إليه آخرون من أن "الجديد" يكون نعتا للكلام، أي كلام جديد في جهة الصياغة والمنهجية والشبه، فعلى هذا يكون علم الكلام الجديد هو امتداد لعلم الكلام القديم ولا يوجد اختلاف جوهري بينهما.

وخروجا من الخلاف وحتى لا يُفهم من لفظ "الجديد" أن "القديم" زال وانقرضَ استعملتُ في عنوان البحث لفظ "المعاصر" في التعبير عن الكلام الجديد.

الغرض من علم الكلام المعاصر:

– التجديد؛ لأنه ضرورة ملحّة في جميع العلوم والفنون، فالتجديد سنة كونية تعيش عليها جميع الكائنات.

– ظهور أفكار جديدة وأراء حديثة مغايرة لما ظهر في القرون الماضية، مستعملةً لآليات لم يُسبق إليها، وهذا من المستجدات الطارئة على علم الكلام.

– الإجابة على الأسئلة المستجدة والإشكالات المعاصرة التي تقتحم عالمنا الإسلامي.

ظهور علم الكلام المعاصر:

يرجع بروز علم الكلام المعاصر إلى بداية القرن التاسع عشر الميلادي، وهو القرن الذي عُرِفَ بالتحديات الفكرية وانتقادات الغرب للبلدان الإسلامية إبان احتلالها، ويتجلى ذلك بوضوح مع المستشرقين الذين كان لهم قصب السبق في بث الشكوك والشبهات إلى كافة أمور الدين والعقيدة، مما دفع ثلة من العلماء إلى التصدي لتلكم الشبهات والطعنات الموجهة للعقيدة الإسلامية التي تعتبر حصنا حصينا للمسلم. ومن هؤلاء العلماء:

1- جمال الدين الأفغاني:

فمع كونه كان مصلحا اجتماعيا حيث كانت دعوته منصبةً حول خطر الاستعمار وإلى توحد العالم الإسلامي، إلا أن ذلك لم يمنعه من الدفاع عن عقيدة المسلمين فألّف كتابا نفيسا في الرد على الملحدين الدهريين وسماه: (الردّ على الدهريين) ومن الأمور التي تكلم فيها في كتابه "غايات الدهريين"[5] و "مضار إنكار الألوهية"[6] و " بناء عقائد الأمة"[7] وغيرها...،

2- محمد عبده:

مما اشتهر به الشيخ محمد عبده هو الدفاع عن عقائد المسلمين، وهذا ما دفعه إلى تأليف كتابه المشهور (رسالة التوحيد) حيث دعا فيه إلى إعمال العقل في تقرير العقائد، وكان مؤيدا لأساليب علم الكلام الإسلامي لكن مع ضرورة التجديد والإصلاح، خصوصا تنقيته مما علق به من المباحث الفلسفية التي لا صلة لها بموضوع علم الكلام[8].

المحور الثاني: علمُ الكلام المعاصر وإسهامُه في محاربة الإلحاد.

إن لعلم الكلام أهمية عظيمة في محاربة الإلحاد، لأن له قواعد عقلية يتفق عليها العقلاء من جميع الأجناس والديانات.

أولا: الإلحاد والفطرة.

تعتبر الفطرة من أهم المكونات التي جاءت بها الشريعة مع بيان تجلياتها وما تشتمل عليه من المعاني، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الروم، الآية: 29].

قال الإمام الرازي: "أي الزم فطرة الله"[9]، ويقصدُ بذلك أن "فطرةَ" نُصبت بفعل أمر محذوف تقديره "الزم".

وما يبيّن معنى الآية أيضا ما جاء في الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ ﴾** الآيَةَ"[10].

فالآية والحديث يدلان على أمر فطري جَبَلَ اللهُ الناس عليه وهو التديّن المستقيم الذي يؤدي بصاحبه إلى معرفة الله وإلى الإقرار بوجود الله تعالى وإفراده بالعبادة.

وما يدل على أنه من الفطرة الإقرار بوجود الله تعالى قوله سبحانه: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَالأَرْضِ﴾ [سورة إبراهيم، الآية: 13]. واختلف العلماء في الشيء الذي أُنكر الشكّ فيه، فقيل وجود الله، فيكون المعنى أفي وجود الله شك؟ وقيل: عبودية الله، فيكون المعنى أفي إفراد الله بالعبادة شك؟

فالفطرة توصل صاحبها إلى الخالق سبحانه، فمن الناس من يصل بفطرته السليمة ومنهم من يحتاج إلى نظر وإعمال الفكر، لأن فطرته دُنّست بعوامل خارجية. لذا، قالت لهم رسلهم ﴿ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَالأَرْضِ﴾ أي ابتدأها وخلقها من عَدَمٍ، فتكون الآية إذن دالةً على وجود الله بأمرين:

- الفطرة: وهو مقتضى سؤال: "أفي الله شك".
- العقل: استدلال بالأثر على المؤثر [فاطر السماوات والأرض] فالفاطر والخالق مستحق للعبادة عقلا..

وما يشهد لهذه الفطرة كونها نزعةً للإيمان والتدين هو ظهور مقتضاها وتحركها وبروزها عند المصائب والشدائد، فما أن يقع الإنسان في مكروه أو تَنزِلَ عليه مصيبة أو ابتلاء إلا واستيقظت قوة عظيمة في نفسه لا يستطيع دفعها وهي قوة الفطرة.

وقد بيّن القرآن الكريم ذلك فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ [سورة الزمر، الآية: 9] وقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [سورة يونس، الآية: 22].

قال الإمام الرازي: "إن الإنسان إذا وقع في محنة شديدة وبلية قوية لا يبقى في ظنه رجاء المعاونة من أحد، فكأنه بأصل خلقته ومقتضى جبلته يتضرع إلى من يخلصه منها ويخرجه عن علائقها وحبائلها وما ذاك إلا شهادة الفطرة بالافتقار إلى الصانع المدبر"[11].

ولا يمكن لأحد أن يجحد هذه القوة التي فطر الله الناس عليها، إذ لابد للإنسان من التدين، والتاريخ البشري يظهر أن الدين له مركزية في سائر الحضارات والدول المتعاقبة. فلا مانع إذا أن يكون الله تعالى خلقنا على هيئة قابلة للتدين والإيمان، ومن يُنكر هذا فهو يجحد قوة ظاهرة فيه بادية عليه خصوصا في أوقات الأزمات والنكبات، وكما قال بعضهم: من الممكن أن نجد مدنا بلا أسوار وبلا ملوك وبلا ثروة وبلا أدب وبلا مسارح، لكن لم نجد قط مدينة بلا معبد يمارس فيه الإنسان العبادة.

ثانيا: الإلحاد والأخلاق.

من الأمور التي يسعى الملحدون إلى إبرازها –وخصوصا الملاحدة الجدد– هي أن الأخلاق لها قيمة كبيرة في الحياة، وأنه يجب أن يسعى الإنسان لتحقيق القيم الأخلاقية وأن الأخلاق هي أهم مكوّن في حياة الإنسان، وهذا ما دفع الكثير منهم إلى انتقاد الأديان والكتب المقدسة لتوفرها على نصوص غير أخلاقية، فأدى بهم هذا الأمر إلى اتهام النصوص الدينية بالوحشية والرجعية.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه بقوة هو ما الأسس التي اعتمدها الملحدون في حكمهم على فعل من الأفعال أنه قبيح أو شرٌّ؟ وما هو معيار الخُلُقِ الجميل والخلُق القبيح عندهم؟

وقد أجاب الكثير من الملحدون على هذه التساؤلات، وذكروا أن مصدر الأخلاق هو الطبيعة، وأن الأخلاق هي عبارة عن سلوكيات تفرضها الطبيعة.

مفهوم الأخلاق:

الأخلاق جمع خُلق. وقال الجرجاني في تعريفه: "عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلًا وشرعًا بسهولة، سميت الهيئة: خلقًا حسنًا، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة، سميت الهيئة: خلقًا سيئًا، وإنما قلنا: إنه هيئة راسخة؛ لأن من يصدر منه بذل المال على الندور بحالة عارضة لا يقال: خلقه السخاء، ما لم يثبت ذلك في نفسه"[12].

وما يميز الأخلاق عن الغريزة هو الآثار القابلة للمدح والذم، فمثلا النوم غريزة في الإنسان حينما يشعر بالنعاس، وليس مما يُمدح أو يذم عليه، ولكن إذا نام الإنسان مدة زائدة عن حاجته الغريزية أصبح فعله مذموما، لأنه أثّر لخُلُقٍ في النفس مذموم وهو الكَسل والخمول، وعكس ذلك هو أثر لخلق محمود وهو النشاط والحيوية.

وكذلك الأمر بالنسبة لباقي الغرائز النفسية التي لا صلة لها بالأخلاق، وإنما علاقتها بالأخلاق تكمن في آثارها السلوكية التي لا تستوجب ذما ولا مدحًا.

والخلق منه ما هو طبيعي ينشأ مع الإنسان ويُجبل عليه كالحِلم والتُّؤدة والحياء، ومنه ما هو مكتسب على حسب البيئة والتعوّد كالشجاعة والكرم.

ربط الأخلاق بالطبيعة:

مما لا شك فيه أن الطبيعة لا تُفرِّق بين الخير والشر والقبيح والحسن، ولا تعرف الفعل الأخلاقي من الفعل الغير أخلاقي، وأما الإنسان فهو على عكس الطبيعة تماما، فيعرف الأخلاق الحسنة من الأخلاق القبيحة، ويستطيع أن يُفرّق بينهما. فكيف يمكن أن نجعل الطبيعة –التي لا تعرف التمييز بين الخير والشر– مصدرا للإنسان الذي يعرف الخير والشر لكونه يتصف بالوعي الأخلاقي.

ويُضاف أيضا أن الطبيعة عند الملحدين عبارة عن قوانين آلية ثابتة ومطردة لا تتغير ولا تتبدل ولا إرادة فيها ولا اختيار، أما فعل الإنسان الأخلاقي فإن ما يميزه عن أي فعل آخر هو المصدر الذي نبع منه، إذ الفعل الأخلاقي يصدر من داخل النفس البشرية انطلاقا من القيم والمبادئ المبثوثة فيها دون إكراه أو تسلط خارجي عليه، فالإنسان عنده إرادة وحرية الاختيار، فيفعل الفعل بإرادته وهو يحس بحرية في اختياراته، ويمكنه أن يمتنع عن فعل ما أيضا بحريته واختياره. ومثال ذلك: يمكن أن يعطف على شخص باختياره ويمكنه أن يقسو باختياره.

فعلى هذا لا يمكن أن نجعل الطبيعة –التي لا إرادة لها ولا اختيار– مصدرا لأخلاق الإنسان التي تتوفر على الإرادة والاختيار، وكما قيل فاقد الشيء لا يعطيه.

وكذلك أيضا لما كانت عندهم الطبيعة هي المادة، والمادة تُدرك وتُشاهد بالحواس، والأخلاق صفات معنوية لا تُدرك بالحواس، فلا يُعقل أن يرى أحد أو يتذوق أو يشمَّ أو يلمس خلقا من الأخلاق المعنوية كالشجاعة والكرم والإصلاح والإخاء والصدق والعدل..، والأخلاق القبيحة كالكبر والظلم والسخرية والعنف والغش..

فعلى هذا لا يمكن أن تكون المادة أو الطبيعة مصدرا لشيء غير مادي، ومن المعلوم أن فاقد الشيء لا يعطيه.

فالأخلاق إذن تجعل الملحد في حيرة من أمره، فلا ينفك من أمرين، إما أن يقرّ بوجود الأخلاق، وعلى هذا يكون مؤمنا بمصدر غير مادي تسبب في نشأتها، وإما يجحدَ وجود الأخلاق فيصير بذلك مثل الجماد لا أخلاق له.

القول بأن الطبيعة هي مصدر الأخلاق يُلغي إرادة الإنسان ومسؤوليته تجاه أفعاله.

لما كانت الطبيعة تتّسم بالقطعية والحتمية، فإن الزعم أن الطبيعة هي مصدر الأخلاق يلغي إرادة الإنسان واختياراته، ولا يبقى لهما معنى عنده، فيصير الإنسان بذلك كالريشة في مهبّ الريح، لا يستطيع توجيه نفسه ولا تصريفها، والحرية مرتبطة بالمسؤولية والذي لا حرية له في الإرادة لا مسؤولية عليه، وبهذا يكون القول بأن الطبيعة هي مصدر الأخلاق باطلا، لأن الإنسان مسؤول في هذه الحياة ولا ينفك عن المسؤولية، إذ لابد أن يُحاسب على عمله وعلى جرمه.

فكيف إذا يمكننا أن نكلّف إنسانا بأي تكليف؟ وكيف نحمّله مسؤولية إذا لم يكن حرا مريدا، وكيف يمكننا أن نمدحه على نجاحه وتفوّقه؟ وكيف نذمه على فشله إذا لم تكن له حرية الاختيار.

فالحتمية دائما لا يكون فيها معنى للمدح والذمّ والخير والشر والثواب والعقاب، ويكون الكلام على القيم الأخلاقية لغوا لا معنى له لغياب المعيار الذي نضبط به الخير والشر، والحتمية كل شيء يجري فيها وفق قوانين ثابتة لا يمكن الحياد عنها.

ثالثا: الإتقان والإحكام دليل على وجود الله.

إن الكون الذي نعيش فيه لا ينكر أحدا أنه متقن محكم لا خلل فيه ولا نقص، فقد تم إحكامه وضبطه إلى حد كبير، ولو لم يكن متقنا لتلك الدرجة لما كان صالحا للعيش فيه، بحيث إنه إذا وُجد فيه خلل وتفلّت صغير أدى ذلك إلى انهيار الكون كله، ومن هنا يُعتبر دليل الإتقان والانتظام قويا في مجابهة الملحدين.

لذا، نجد أن موضوع إتقان الكون وإحكامه تناوله علماء المسلمين واستدلوا به على من ينكر الله تعالى في القديم والحديث. قال الإمام الرازي: "الفطرة شاهد بأن حدوث دار منقوشة بالنقوش العجيبة، مبنية على التركيبات اللطيفة الموافقة للحكم والمصلحة يستحيل إلا عند وجود نقاش عالم، وبان حكيم، ومعلوم أن آثار الحكمة في العالم العلوي والسفلي أكثر من آثار الحكمة في تلك الدار المختصرة فلما شهدت الفطرة الأصلية بافتقار النقش إلى النقاش، والبناء إلى الباني، فبأن تشهد بافتقار كل هذا العالم إلى الفاعل المختار الحكيم كان أولى"[13]. وقال الإمام ابن القيم: "ومن نظر في هذا العالم وتأمل أمره حق التأمل علم قطعا أن خالقه أتقنه وأحكمه غاية الإتقان والإحكام فإنه إذا تأمله وجده كالبيت المبني المعد فيه جميع عتاده فالسماء مرفوعة كالسقف والأرض ممدودة كالبساط والنجوم منضودة كالمصابيح والمنافع مخزونة كالذخائر كل شيء منها لأمر يصلح له والإنسان كالمالك المخول فيه"[14].

وهذا النوع من الدليل قطعي وبسيط ومادته من دليل الحدوث والخلق لأنه أيضا يتّكأ على:

- أمور حسية مشاهدة.
- مبادئ فطرية ضرورية.

فبهذا الاعتبار يكون هذا الدليل قويا إذ يعتمد على الفطرة فلا صعوبة فيه.

التنبيه من الوحي بهذه الدلالة العقلية:

المتأمل في نصوص الوحي يتجلى له كثرة النصوص الدالة على صنع الله تعالى وإتقانه لهذا الكون، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [سورة النمل، الآية: 90]. وقوله سبحانه: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ ﴾ [سورة لقمان، الآية: 9]. وغيرها من الآيات الكثيرة..،

صورة الدليل:

يقوم دليل الإتقان والإحكام على مقدمتين:

المقدمة الأولى: الكون مُتقن.

المقدمة الثانية: الإتقان لابد له من فاعل.

النتيجة: الكون لابد له من فاعل.

الأمور العلمية الدالة على الإتقان والإحكام.

من المعلوم أن علماء المسلمين —خصوصا علماء الكلام– تكلّموا عن هذا الدليل وناظروا المجادلين فيه، ولكن في زماننا برزت أمور كثيرة من الناحية العلمية تبيّن دقة هذا الكون وضبطه وإحكامه، وذلك من أجل أن توجد وتستمر الحياة فيه، وأن أي اختلال فيه سيؤدي إلى الخراب والدمار، لأن وجود الكون مرتبط بأرقام دقيقة لو قُدِّر التغيير في بعضها ولو كان تغييرا يسيرا لما كان الكون موجودا أصلا.

وهذا الأمر يجب على علمائنا أن يوظفوه في علم الكلام الحديث من أجل الاستدلال على وجود الخالق سبحانه، وذلك من خلال إبراز نماذج من العلم الحديث تبيّن هذا الضبط والإتقان الدقيق للكون، ومن ذلك:

- سير المجرات.
- خلق الإنسان وتكوينه.
- خلق الكون وتمدده.

وغير ذلك من المسائل والقضايا العلمية الحديث والتي تُعدّ من علم الكلام الحديث.

خاتمة:

إن ما نراه الآن من الشبهات المعاصرة التي يُثيرها الملحدون لابد لها من إجابات تتماشى مع العصر والعلم الحديث، مع عدم إغفال مبادئ علم الكلام القديم إذ هو الأساس لكل ما جدَّ من الكلام الحديث، لأن الأصل فيه وفي نشأته هو الذود عن عقائد المسلمين بكل السبل المتاحة.

لذا، كان الاهتمام بالعلوم الطبيعية والكونية ضروريا، حيث في كل يوم يستجد شيء جديد وتظهر نظريات حديثة ينبغي على المتصدّر للردّ على شبهات الملحدين أن يكون ملمّا بها حتى يوظفها في الانتصار للعقائد الإسلامية.

أهم النتائج:

-الاهتمام بعلم الكلام الحديث وعدم الاقتصار على علم الكلام القديم فقط، لأن له زمانه وسياقاته التي برز بسببها.
-التنبه لخطورة الإلحاد خصوصا في زماننا حيث نجد أن الملحدين يوظّفون كل قواهم من أجل محاربة التديّن والعقائد.
-الحرص على الاهتمام بالعلوم الكونية والطبيعية وأن يكون العالِم المتصدّر لشبهات الملحدين على علم بها أو بأصولها الكبرى.
-الجمع بين علم الكلام القديم والحديث وعدم الاقتصار على أحدهما فقط.
-الاهتمام بالعلوم النقلية وعدم إلغائها، إذ هي الأساس في الدفاع عن العقيدة.

الهوامش:

[1] ابن خلدون، المقدمة (ص:477)، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط.1، 2012م،

[2] عضد الدين الإيجي، المواقف في علم الكلام (ص:7)، عالم الكتب –بيروت–

[3] سعد الدين التفتازاني، تهذيب المنطق والكلام (ص:15)، مطبعة السعادة، ط.1، 1912م.

[4] أخرجه مسلم في صحيحه (29/1)، كتاب الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم: 1. دار الجيل.

[5] جمال الدين الأفغاني، الردّ على الدهريين (ص:39)، المكتبة المحمودية، 1935هـ.

[6] جمال الدين الأفغاني، الردّ على الدهريين (ص:60).

[7] جمال الدين الأفغاني، الردّ على الدهريين (ص:72).

[8] يُنظر: محمد عبده، رسالة التوحيد (ص:140)، تحقيق محمد عمارة، دار الشروق، ط.1، 1994م.

[9] الرازي، مفاتيح الغيب (98/25)، دار إحياء التراث العربي –بيروت– ط.3، 1420هـ.

[10] أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب: الجنائز، باب: باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام، (ح:1292).

[11] الرازي، مفاتيح الغيب (71/19)

[12] الجرجاني، التعريفات (ص:101)، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية –بيروت– ط.1، 1983/1403م.

[13] الرازي، مفاتيح الغيب (71/19).

[14] ابن القيم، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (1567/4)، ت. علي بن محمد الدخيل، دار العاصمة –الرياض– ط.1 1408هـ.